

عدي النابلسي

هكذا تكونُ الخيبة!



هكذا تكونُ الخيبة!

قصة قصيرة

عدي النابلسي

مُرَّ طَعْمُ الْخَيْبَةِ دَائِماً ..
ولكنه في الحبِّ والصداقة
لا يُطَاق ولا يُحْتَمَلُ ..
لا خَيْبَ اللهُ أَمْلاً لِأَحَدٍ ..
ولا أذَاقَ إنساناً من كأسِ الخيبة ..

هكذا تكونُ الخيبة!

كانت "ياسمين" في التاسعة من عمرها، وكان "سامي" في العاشرة، وذلك في إحدى أحياء مدينة القاهرة - بمصر، وكان ذلك عندما جمعت بينهما الصداقة حين كانا يدرسان في المدرسة ذاتها، وكان أول لقاءٍ بينهما عندما كان "سامي" يلعب مع أصدقائه في "باحة المدرسة" فوجد "ياسمين" وهي تصرخ أمامه في وجه بعض الأولاد المشاغبيين الذين كانوا يزعجونها، ويحاولون أن يسرقوا منها "قطع الكروسان" الشهية وهي تلهو مع صديقاتها، ليتدخل "سامي" على الفور..

ثم يتشاجر معهم، ويستردّ منهم "قطع الكروسان"، ومن ثم يعيدها إلى "ياسمين" بعد أن تبسّمت له، وشكرته على حسن معرفه، ولطف موقفه معها..

وبعد جملة تلو الأخرى وحديث دارَ بينهما، علمت "ياسمين" أن "سامي" يقطن في الحارة نفسها التي تقطنُ هي بها، فاقترح "سامي" - بعد ذلك - أن يُصبحا صديقين، وأن يعودا معاً إلى منزليهما بعد انتهاء دوامهما في المدرسة، فوافقت "ياسمين"، وسرّت باقتراح "سامي"، خاصةً أنها لن تخشى بعد ذلك أن يعترضها أحدٌ من أولئك الأولاد المشاغبين أو ينتزع منها "قطع الكروسان" أو شطائر البيتزا المفضلة لديها. فاتفقا بعد ذلك على أن يلتقيا كل خميس من كل أسبوع؛ حيث يصادف اليوم الذي كان قد جمع بينهما لأول مرة، واقترحت "ياسمين" أن يكون ذلك اليوم يوماً مميّزاً عن غيره من أيام الأسبوع؛ أي أن لا يخلو مثلاً من مفاجأة ما، أو خبرٍ مُفرح، أو أي هدية بسيطة .. وسيكون ذلك تارةً من قبل "سامي"، وتارةً من قبل "ياسمين"، وهكذا ... ثم تعاهدا بعد ذلك على ألا يفترقا بين صداقتهما أي شيء على الإطلاق ..

وبعد أن أقبل الخميس من جديد .. كان "سامي" قد قابل "ياسمين" مجدداً، ثم رجعا من المدرسة سوياً، وبينما هما في طريقهما إلى المنزل، مرَّ "سامي" بمتجر للشطائر والمعجنات وقام بشراء العديد منها، وأعطاهما لـ "ياسمين"، والتي بدورها كانت قد فرحت بها كثيراً؛ إذ إن تلك الشطائر كانت لها مكانة عظيمة في قلبها، أو بالأحرى؛ في معدتها ..

وبعد مرور بضعة أيام .. عاد الخميس ليمرّ مرّةً أخرى، وهذه المرّة كان يتوجّب على "ياسمين" - وذلك حسب الاتفاق الذي تمّ بينهما - أن تُحضّرَ هي شيئاً ما .. لكي تفاجئ به صديقها المخلص "سامي"، ولكنها لم تكن تعلم ما هي الأشياء التي يحبّها "سامي"، أو التي لربّما تثير إعجابه .. فقرّرت أخيراً أن تكتب له شيئاً من خواطرها التي كانت تقوم بكتابتها بين الفينة والأخرى، وبذلك يكون بوسعها أن تُعبّرَ له عن رابط الصداقة والإخلاص الذي كان يربط بينهما،

بطريقةٍ تغمرها العفوية وتغلّفها براءة الطفولة النقيّة ..
وحين التقت "ياسمين" بـ "سامي" - في ذلك الخميس - وضعت في حقيبته رسالةً من خواطرها التي تمتلئ بحروفٍ عذبةٍ نقيّة، عنوانها الصداقة والإخلاص، وكان ذلك دون أن يشعر "سامي" بأيّ شيءٍ من ذلك ...

وحين عاد إلى منزله وجد "سامي" رسالة "ياسمين" النابعة من ينبوع الصداقة العذبة الرائقة، وكان قد تفاجأ بتلك الرسالة الرائعة، وقرأها وفرح بها كثيراً ..

وهكذا .. ظلّ "سامي" و "ياسمين" قائمين على عهدهما .. "عهد الأصدقاء" الذين لا تفرّق بينهم نائبة، ولا تشوب صداقتهم شائبة.

وتمرُّ الأيامُ والسَّنون .. وتبَدِّلُ الطُّروفُ والأحوال، وذلك بعد أن انقطعت حبال الصِّداقة بين "سامي" و "ياسمين" لفترةٍ طويلة؛ إثر تقلُّب الزَّمان وتبَدُّل المكان، وجزيان الزِّيَّاح بما لا تشتهي السَّفنُ ..

وفي يوم من الأيام .. يعود القدرُ ليجمع ما بين "سامي" و "ياسمين" من جديد، في كليَّة الآداب - بالقاهرة، وكانت المصادفة التي جمعت بينهما مجدداً - في قاعة المحاضرات نفسها - بعد أن كان "سامي" يُشارك في إلقاء قصيدة له، بعد انتهاء إحدى المحاضرات التي كانا يحضرانها في تلك القاعة آنذاك، ولكن دون أن يعلم أيُّ منهما أنَّ القدر عاد ليجمع بينهما مجدداً في تلك القاعة بعد كلِّ تلك السَّنوات ..

وما إن انتهى "سامي" من إلقاء قصيدته، حتَّى كان قد احتشد حوله عددٌ من الأصدقاء والرِّملاء في القاعة، وكانت "ياسمين" من بين أولئك الذين كانوا قد تجمَّعوا حوله ليُعربوا عن إعجابهم بالقصيدة، ويشاركوه بعض الأحاديث. ولكنَّ "سامي" وكذلك "ياسمين" أيضاً، لم يستطيعا - بعد تلك السَّنين الطويلة - أن يذكرَا ملامح بعضهما ولا أيَّ شيءٍ حول رابط الصداقة الذي كان يربط بينهما في أيام الصِّبا المنصرمة

وبعد لحظاتٍ قليلةٍ .. كان المشهّد قد تغيّر تماماً، وكادت رياحُ الدّهشة تعصفُ بـ "ياسمين" بعد أن سمعت باسم "سامي" وكُنيتها، واستعادت شريط ذكرياتها في الطّفولة، يومَ كان "سامي" صديقَ طفولتها الوردية وأجمل أيام حياتها .. وكذلك كان المشهّد أيضاً بالنسبة لـ "سامي"، فقد صُعِقَ تماماً بعد أن تحدّث معها وعلم بأنّها هي نفسها - ياسمين - تلك الفتاة التي كان قد عرفها يوماً وقضى معها أيام طفولته السعيدة، وها هو الآن يعود ليلتقي بها مرّة أخرى بعد سنين طويلة غابت بها عنه أخبارها، واضمّلت آثارها ..

ولكن .. هل ستعود تلك الذكريات المنصرمة مجدّداً بين "سامي" و"ياسمين"؟ .. فلقد كُبرَا اليومَ وكلّ منهما بات منشغلاً بمستقبله وحياته ..

ولكنّ تقلّب الظروف وتبدّل الأحوال، ومرور سنواتٍ طويلة على انقطاع صداقتهما .. كلّ ذلك لم يُفلح بأن يحولَ بين صداقتهما .. إذ خرجا بعد ذلك من قاعة المحاضرات وجلسا إلى جانب أحد الأكشاك في حديقة الجامعة، وأخذتا يتجاذبان أطراف الحديث - واللّهفةُ تملأ قلبيهما - ليسترجعا معاً أجمل سنين عمرهما في سلسلة من الذكريات البنفسجية ..

فقرراً من جديد أن تعود الصداقة بينهما كما كانت في
الطفولة، ومن يدري؟.. فربما تصبح حبال الصداقة بينهما
أكثر متناً وصلابة ممّا كانت عليه في الماضي ..!
وهكذا .. عاد "سامي" و"ياسمين" ليلتقيا ويُعيدا "عهد
الأصدقاء" الذي كان بينهما، وعادت "الشطائر" أيضاً ..
واقترح "سامي" - بعد ذلك - أن يعودا ويتبادلا المفاجئات
التي كانا يتبادلانها في الطفولة عندما يأتي الخميس، فلم
تتردد "ياسمين" بأن تقبل - وبكل بهجة ومسرّة - اقتراح
"سامي"، وكيف لا وقد كان - من الأساس - اقتراحها
وفكرتها ..!

وذات يوم من الأيام .. جلس "سامي" يفكّر ملياً بينه وبين
نفسه؛ بأنّ كلّ ما حصل معه منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة،
ولا سيّما بما يتعلّق بـ "ياسمين"، لم يكن مصادفةً إطلاقاً،
وبأنّه لا شك أنّ القدر قد رسم له تلك الخريطة العجيبة، في
كل التفاصيل التي كان قد مرّ بها في حياته .. وأنّ لكلّ إنسانٍ
في هذه الدّنيا نصيباً، لا بدّ أن يصيبه يوماً.

ولكن "سامي" - في الحقيقة - لم يكن ينظر إلى "ياسمين" بصفتها صديقة طفولته فحسب؛ نعم .. لقد كان الأمر كذلك عندما التقى بها لأول وهلة في حياته، وما انفك يرى بها صديقةً مخلصَةً حقاً طيلة أيام طفولته، ولكن عندما شاءت الأقدار أن يفترقا وتنقطع حبال الصداقة بينهما؛ إثر تبدل الظروف والأحوال، بدأ "سامي" حينئذ يشعر بمشاعرٍ مختلفةٍ تجاه "ياسمين" .. لقد بدأ يشعر بأنه يحبها .. بل ويهيم بها حباً! وكان يسهر الليالي ولا يعرف للتوم سبيلاً؛ من أجل أن يكتب بها أروع القصائد وأعذب الحروف والكلمات،

والتي كانت تنبع من صميم فؤاده، وذلك بالرغم من أنه لم يكن يكتب حرفاً واحداً قبل أن يلتقي بها!..
لقد أصبحت "ياسمين" - فيما بعد - بالنسبة له مصدراً خصباً ومعيناً لا ينضب من الوحي والإلهام، وكان طيفها يتراءى له صباح مساء ولا يفارق مخيلته ..
وطوال تلك الفترة الزمنية .. والتي كان القدر فيها قد فرق بين صداقتهما، كان "سامي" يدعو الله بلهفة ولوعة لكي يعود اللقاء ليجمع بينهما مجدداً .. ذلك من أجل يعبر لها عن مشاعره الحقيقية الصادقة التي كان يكنها لها ..

وها هي اليوم أمنيته قد تحققت .. وعاد ليري صديقة أحلامه التي لطالما تعذب من أجلها .. وهو يضمن لها حباً - بينه وبين نفسه - لم تكن تعلم شيئاً عنه .. لا من قريب ولا من بعيد ..!

وها هو الخميس أيضاً .. يعود ليُقبل من جديد .. وتعود المفاجئات السعيدة بين "سامي" و"ياسمين"، ولكن في هذه المرة سيكون خميساً مميزاً، ومختلفاً عن سابق عهده، بل سيكون مختلفاً تماماً عن كل مفاجئات الطفولة البريئة ومباهجها البسيطة، فلقد قرّر "سامي" أن يذهب ليصارع "ياسمين" بمشاعرة الخبيثة تجاهها، فهو لن يُضيع تلك الفرصة السعيدة من بين يديه بعد أن منحه القدر إياها - مثلما كان يعتقد ؛- فرصة أن يستعيد حباً كان يضمّره في قلبه خلال مدّة لم تكن قصيرة، بل كانت تزيد عن خمسة عشر عاماً بأكمله، وكانت الصداقة خلالها قد نمت لتصبح حباً ..

وهكذا .. ذهب "سامي" إلى متجر للبيتزا وقام بشراء العديد من الشطائر لكي يأخذها معه إلى "ياسمين"، ويستعيد معها ذكريات من الماضي البعيد ..

ثم مرّ بعد ذلك بمتجرٍ لبيع الزهور وقام بشراء باقةٍ من الورد الحمراء ليهدّيها إلى "ياسمين" ..

لقد ذهب وأخذ معه حبّاً عظيماً لم يزل يُضمره بين ضلوعه حتى هذه اللحظة، وكان يعدُّ خطواته وهو في طريقه إليها .. ليخبّرها بما يُريد أن يخبرها .. ويفاجئها بما يريد أن يفاجئها .. وكان ذلك في الوقت نفسه الذي كانت به "ياسمين" تحضّر له مفاجأةً مميزةً أيضاً. وما إن مرّ بعض الوقت، حتى وصل "سامي" إلى الكلية لينتظرها في حديقة الجامعة، وذلك بعد أن تواصل معها مسبقاً من أجل أن تكون هناك، ولكنها لم تكن تعلم بأنه يتوجّب على "سامي" في هذا الخميس - بحسب الاتفاق - أن يحضّر - هو - شيئاً ما ليفاجئها به، بل كانت تظنّ بأنها هي التي ستحضر المفاجأة في هذه المرّة، وهكذا كانت هي أيضاً تعدّ خطواتها وهي في طريقها إليه، من أجل أن تحضّر له مفاجأةً كانت توقّئ تماماً بأنها ستسرّه وتُسعده.

جلس "سامي" ينتظرها - على مقعدٍ خشبيٍّ - وبجانبه طبقٌ مغلّفٌ من شطائر البيتزا التي كانت تفضّلها، وباقة الورد أيضاً ..

وعندما وصلت "ياسمين" إلى حديقة الجامعة، رأت "سامي" وهو جالسٌ ينتظرها وهو يبتسم ويلوح لها بيده كي تأتي وتجلس معه ..

وحين دلفت منه وجلست بجانبه، لم تتنبّه "ياسمين" إلى طبق البيتزا وباقة الورود اللذين كان "سامي" قد وضعهما على يمينه، فبادرته الحديث قبل أن يتفوّه بحرفٍ واحد ممّا كان ينوي أن يبوح لها به، وأخبرته - بصفته صديق طفولتها المخلص كما كانت تراه دائماً - بأنه لا بدّ أن يكونَ حاضراً في يوم زفافها المقرّر في الخميس المقبل ...

فهكذا تكونُ الصّداقةُ، وهكذا تكونُ الخيبةُ أيضاً !..
